أتون الزمن // نوعا بيليغ

قَيِّمة: نيتسا كوهن مور

كان تجار فينيقيون يبحرون بسفينة تجارية قادمة من مصر، محملة بشحنة كبيرة من الصوديوم. هبت عاصفة أجبرتهم على الرسو لقضاء الليل، فنزلوا إلى الشاطئ الرملي بالقرب من مصب نهر النعمان في منطقة عكا. وبينما كانوا يهمون بإعداد وجبة العشاء، اكتشفوا عدم توفر أحجار كبيرة يمكنهم وضع أواني الطهي عليها؛ فذهبوا إلى السفينة وأحضروا كتلًا من الصوديوم لاستخدامها كقواعد لتلك الأواني. وظلت نار المخيم مشتعلة بقوة طوال الليل، حيث أدت الحرارة الشديدة إلى صهر الصوديوم وامتزاجه برمال الشاطئ المحلية الغنية بالسيليكا. وفي صباح اليوم التالي، ذُهل التجار حين عثروا وسط بقايا النار على مادة جديدة شفافة وبراقة؛ فقد كانت تلك المادة قد سالت تحت الأواني ثم تجمدت. وكان ذلك هو الزجاج الأول. (بليني الأكبر، التاريخ الطبيعي، القرن الأول الميلادي)

تُبدي نوا بيليغ، وهي خريجة أكاديمية "بتسلئيل" للفنون ومقيمة في نهاريا، شغفاً كبيراً بالزجاج؛ إذ عكفت في السنوات الأخيرة على دراسة هذه المادة الفريدة والعريقة وإجراء الأبحاث والتجارب عليها، مع التركيز بشكل أساسي على تقنيات الرسم والصب والصهر. ومن خلال هذا المعرض، تكشف الفنانة عن علاقة تربطها بهذه المادة وتمتد لتشمل سياقات محلية وتاريخية وعالمية. ففي عام 1959، وأثناء عمليات التنقيب الأثري في حديقة "بيت شعاريم" الوطنية، عُثر داخل كهف منحوت في الصخر على أكبر لوح زجاجي قديم في العالم؛ وهو لوح مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي 3.4 متر وعرضه مترين، وتصل كتلته إلى 8.8 طن. تبيّن أن هذا الكهف كان يُستخدم ورشةً لإنتاج الزجاج الخام خلال القرن الثامن الميلادي -أي في العصر الإسلامي المبكر-؛ إذ شيّد الحرفيون المحليون فرناً ضخماً للصهر وملأوه بالمواد الخام (الرمل والصوديوم)، وحافظوا على نارٍ بلغت درجات حرارتها أكثر من 1000 درجة مئوية لأسابيع متواصلة. وكان هدفهم تكسير كتلة الزجاج الكبيرة الناتجة إلى قطع أصغر وشحنها إلى ورشٍ في أنحاء البلاد ومختلف أرجاء العالم، حيث يُعاد صهرها لتصنيع الأواني الزجاجية.

في هذا المعرض تعرض بيلج أعمالًا تحمل في مضمونها السياق التاريخي والأسطوري لصناعة الزجاج في إسرائيل، وفي منطقة كريات طبعون بوجه خاص. أعمالها مسار من التجريب والتساؤل، واختبارٌ للمادة يُفضي إلى نتائج مختلفة، غير معروفة دائمًا مسبقًا، كما هي الحال عند أولئك الفنانين المحليين التاريخيين. تستخدم الفنانة زجاجات الزجاج كمادة خام. تصهرها وتصبّها في قوالب كما في عمل «فخّاريات»، وتختبر حدود المادة ونقاط التقائها كما في عمل «سبيكة»، وتحاول إعادة خلقها كما في الأسطورة، في عمل «تجربة في الرمل والملح والنار». تعود فلاج مرارًا وتكرارًا إلى تقنية الدمج (الفيوجن)، أي صهر المادة وإعادة وصلها، في سلسلتَي «تركيب ونار»، وتُجسّد بها المسار التاريخي والأسطوري في سلاسل «فرن الزمن» و«نافخ الزجاج» و«عقدة.«

صحيح أنّ كتلة الزجاج التي عُثر عليها في بيت شعاريم كانت على الأرجح معيبة في تركيبها الكيميائي، ولذلك بقيت سليمة، إلا أنّها تساعد في إثبات أنّ أرض إسرائيل، وبخاصة منطقة الجليل الأسفل ومرج ابن عامر، ظلّت مركزًا عالميًا لإنتاج الزجاج على مدى قرون. تأخذ بيلج هذه المعرفة وتتيحها لنا. بجمالٍ وألوانٍ آسرة، تصوّر عمليات ترتبط بالمادة. وبشقاوةٍ وفضول، تجرّب مرارًا وتكرارًا، فتخلق شيئًا من لا شيء. وهي تذكّرنا بأنّ ما كان هو ما سيكون، وبأنّ الحاضر والماضي مرتبطان ومتصلان أحدهما بالآخر حتى بعد سنين طويلة.